— ٤ —

رفاعة الطهطاوى

ومدرسته

رفاعة رافع الطهطاوى[1] :

ولد رفاعة فى مدينة طهطا سنة ١٨٠١ ، وفيها تلقى علومه الأولى ، ثم أتم دراسته فى الأزهر ، ثم أرسل ليكون إماماً

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل فى المراجع الآتية :

- الشيال : رفاعة الطهطاوى ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ١٩٤٥ .
- الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥٢ .
- إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، القاهرة ١٩٤٢ .
- إبراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ١٩٤٤ .
- إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، القاهرة ١٩٤٤ .
- أحمد أحمد بدوى : رفاعة الطهطاوى بك ، القاهرة ١٩٥٢ .
- أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨ .
- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، عصر عباس وسعيد وإسماعيل ، القاهرة ١٩٤٥ .

=

للبعثة العلمية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦ ، وهناك تخصص فى دراسة اللغة الفرنسية ، وترجم كثيراً من الفصول والرسائل عن اللغة الفرنسية إلى العربية أثناء إقامته فى باريس ، وأعد نفسه للاشتغال بالترجمة ، وخاصة ترجمة الكتب التاريخية والجغرافية .

وبعد خمس سنوات عاد إلى مصر فعين مترجماً فى مدرسة

= – أمين سامى : التعليم فى مصر ، القاهرة ١٩١٧ .
– جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٣٧ .
– جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، القاهرة ١٩٢٢ .
– صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ، نشر الشيال ، القاهرة ١٩٥٨ .
– عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية فى مصر ، عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٠ .
– على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ١٣ ، بولاق ١٣٠٥ هـ .
– عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، الإسكندرية ١٩٣٤ .
– لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، بيروت ١٩٢٦ .
– محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ، القاهرة ١٩٢٩ .
– محمد الصادق حسين : رفاعة الطهطاوى ، مقال فى السياسة الأسبوعية ، السنة الثانية ، العدد ٦٤ .

—Carra de Vaux: *Les Penseurs de l' Islam, Paris 1926.*
—Dunne (Heyworth): *Printing and Translations Under Muhammad Ali of Egypt. J.R.A.S. part III. july* 1940. P.P. 243-259.

رفاعة رافع الطهطاوى

الطب بالقاهرة ، ثم نقل بعد سنتين مترجماً بمدرسة الطوبجية فترجم بعض الكتب الهندسية والجغرافية .

وقد شغف رفاعة أثناء وجوده فى باريس بدراسة العلوم الإنسانية بوجه عام ، وعلمى التاريخ والجغرافيا بوجه خاص ، ولهذا ترجم بعض الرسائل التاريخية والجغرافية[1] أثناء دراسته فى العاصمة الفرنسية ، ويبدو أنه — بعد إتمام دراسته وعودته إلى مصر — عقد العزم على أن يفرغ لترجمة الكتب الفرنسية فى هذين العلمين ، فإنه يقول فى رحلته : « وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه منقولاً عن الفرنسية إلى لغتنا ، وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة ، بمشيئته تعالى » .

ولهذا بادر رفاعة أثناء قيامه بوظيفة مترجم فى مدرسة الطوبجية بإنشاء مدرسة خاصة لتدريس هذين العلمين ، وستكون هذه المدرسة النواة الأولى لمدرسة الألسن التى ستنشأ فيما بعد .

مدرسة التاريخ والجغرافيا :

ولم تشر المراجع التى كتبت عن تاريخ التعليم فى عصر محمد على إلى هذه المدرسة ، ولكن بعض وثائق العصر أشارت إلى وجودها ، فقد صدر أمر من محمد على إلى ناظر الجهادية فى ١٤

---

(١) راجع الشيال : رفاعة الطهطاوى ، ص ٢٧ — ٢٨ .

جمادى الآخرة سنة ١٢٥١ (قبيل إنشاء مدرسة الألسن) «بتعيين «عبده» مدرساً للجغرافيا بمكتب البيادة بدمياط، وهو من ضمن الأربعة المتممين السابق إرسالهم لطرة للقيام بتدريس (يقصد بتعليم) الجغرافيا بمدرستها، وهم من الذين رباهم الشيخ رفاعة وإرسال ١٠ شبان للشيخ لتربيتهم».

وهذه كما يتضح من نص الأمر السابق لم تكن مدرسة بالمعنى الصحيح، ولكنها لم تعدُ أن تكون فصلا ملحقاً بمدرسة المدفعية خصص لتعليم بعض الطلبة علم الجغرافيا، ليتخرجوا مدرسين لهذا العلم فى المدارس الحربية الأخرى، غير أن رفاعة يسمى هذا الفصل بالمدرسة، ويذكر أنها أنشئت بموافقة «مشورة الجهادية» لتعليم الجغرافيا والتاريخ، لا الجغرافيا وحدها، وقد أشار إلى هذه المدرسة فى مقدمة الكتاب الجغرافى الذى ترجمه بعنوان: «التعريبات الشافية»، قال: «لما سمحت مشورة الجهادية، ذات الآراء السنية الذكية، أن أفتح لفنون الجغرافيا والتاريخ مدرسة تكون على قراءة هذه العلوم مؤسسة، لتشتهر ثمراتها الزاهرة.. أخذت عدة تلامذة لهذا المعنى المدوح وتوجهت بالقلب والقالب لتعليمهم بصدر مشروح، وليس بيدى من كتب الجغرافيا شىء باللغة العربية يحتوى على التفصيل والترتيب على نسق ما فى الكتب الأفرنجية، فلهذا اعتمدت

كتاباً موجزاً فى هذا الفن النفيس ، موضوعاً لمدارس مبادئ العلوم بمدينة باريس ، وشرعت فى ترجمته درساً بعد درس لهذا القصد حتى لا يضيع السعى ولا يخيب الجد ، ولما رأيت أن مؤلفه أطنب فى أوربا لكونها وطنه ، وأوجز فى غيرها حيث لم تكن داره ولا سكنه ، فبهذا الوصف لا يكون لنا كافياً ، ولا لغليل المتطلعين إليه شافياً ، وكنت اطلعت على غيره من كتب العلوم الجغرافية ، ومارست كثيراً منها ، وراعيتها حق رعايتها مدة إقامتى بمملكة الفرنساوية ، وأردت أن أتمم المرام بتلخيص ماينا سب المقام ، حتى تحصل الموازاة والموازنة ، والمعادلة والمقارنة . . » إلى أن قال : « . . وإن شاء الله يترجم من اللغة العربية إلى التركية حتى تكون ثمرته عامة جلية . . الخ » .

لم يقنع رفاعة بهذا الفصل أو بهذه المدرسة « كما يجب أن نسميها » فقد كانت له أهداف كبرى ترمى إلى نقل « التاريخ على اختلافه » عن الفرنسية إلى العربية ، فتقدم بعد قليل إلى محمد على يقترح إنشاء مدرسة أخرى لتعليم اللغات ، ووافق هذا الاقتراح هوى فى نفس محمد على ، فقد كان يريد ترجمة عدد كبير من الكتب الأوربية فى مختلف العلوم والفنون[1] ليستعين بها الطلاب فى مدارسه الجديدة ، وكان يفوزه فى مصر وجود

---

(١) راجع الشيال : رفاعة الطهطاوى ، ص ٤٠ – ٥٣ .

المترجمين الذين يتقنون اللغات الأوربية ليقوموا بهذه المهمة ، فأسرع بالموافقة ، وأنشئت مدرسة الألسن فى أوائل سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) ، وعين رفاعة ناظراً لها ، وفى أوائل سنة ١٢٥٨ (١٨٤١) أنشئ قلم للترجمة[1] وألحق بالمدرسة ، وعين فيه خريجوها ليقوموا بترجمة الكتب التى تطلب الحكومة ترجمتها .

وسوف لا أتحدث هنا بالتفصيل عن هذه المدرسة وهذا القلم وعن جهودهما[2] ، وإنما أحب أن ألفت النظر هنا إلى نقطة هامة لها اتصال وثيق بموضوع بحثنا هذا ، ذلك أن التاريخ اعترف به كعلم لأول مرة فى تاريخ التعليم فى مصر الإسلامية ، وجعل لأول مرة مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن ، وعين له مدرس خاص لتدريسه ، ولسنا نعرف أن التاريخ كان علماً يدرس فى المساجد أو المدارس فى مصر أو غيرها من أقطار العالم الإسلامى .

حقيقة لقد نبغ كثيرون من علماء المسلمين فى التاريخ وألفوا فيه مئات الكتب التاريخية الهامة ، بل لقد نضجت الدراسات التاريخية نضوجاً واضحاً ووصلت فى تطورها إلى مرحلة هامة حاسمة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فوضع ابن خلدون فى مفتتح هذا القرن مقدمته التى فلسف فيها التاريخ وحاول فيها لأول مرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) فصلت هذا الحديث فى كتابين لى هما : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » و « رفاعة الطهطاوى » .

أن يبين أثر العوامل الجغرافية والجو والبيئة فى أخلاق الشعوب وثرواتهم ، وفى العمران ، وفى تطور التاريخ بوجه عام .

وفى نهاية هذا القرن وضع السخاوى كتابه « الإعلان بالتوبيخ[1] » الذى حاول فيه أن يؤرخ للتاريخ فى العالم الإسلامى .

وحقيقة كان بعض المؤرخين يقرأ كتبه التاريخية لتلاميذه ، أو يجيزهم لرواية هذه الكتب عنه ، ولكن هذه الجهود كلها كانت جهوداً شخصية تسير فى نطاق الهواية الفردية الحرة بعيداً عن معاهد العلم ومدارسه ، ولم نعثر على نص أو إشارة تفيد اعتراف مدرسة من هذه المدارس بالتاريخ كعلم ، أو تضعه بين مناهجها ، ولم نسمع عن أستاذ تفرغ فى مدرسة من هذه المدارس أو عُيِّن لتدريس التاريخ ؛ ولم تكن مصر ولم يكن العالم الإسلامى بدعا فى هذا ، فقد كان هذا هو المتبع فى أوربا إلى نفس الوقت تقريباً ، لقد ظهر فى أوربا فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة عدد من المؤرخين ، ولكن التاريخ لم يعترف به كعلم ولم يكن يدرس فى الجامعات الأوربية إلى أواسط القرن الثامن عشر ، وكان الملك جورج الأول أول من أنشأ كرسياً للتاريخ الحديث

---

(١) انظر : (السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ، (Rosenthal: *A History of Muslim Historiography.*, *Leiden* 1952)

فى كل من جامعتى أوكسفورد وكمبردج فى أواسط القرن الثامن عشر ، غير أن الأستاذ جوش يقول : « ولكن الأساتذة الذين تولوا هذ الكرسى — ومن بينهم الشاعر جراى Gray — لم يحاضروا البتة أو قلّ أن حاضروا فى هذا العلم »[1] ؛ وكذلك لم تعترف فرنسا بالتاريخ كعلم إلا فى سنة ١٧٦٩ عند ما أنشئ فى الكوليج دى فرانس Collége de France كرسى للتاريخ والأخلاق .

ولا نستطيع أن نقول إن شيئاً كهذا حدث فى مدرسة الألسن فى مصر ، فلم ينشأ بها كرسى للتاريخ إذ لم تكن جامعة بالمعنى المعروف فى أوربا ، ولم يعين أستاذ خاص لتدريس التاريخ بها ، وإنما الذى نحب أن نقرره أن الحكومة المصرية اعترفت لأول مرة بالتاريخ والجغرافيا كعلمين يدرسان فى مدارسها الحديثة ، بل لقد كان الاعتراف بالجغرافيا أوضح وأقوى من الاعتراف بالتاريخ ، فكانت الجغرافيا مادة تدرس فى المدارس الابتدائية[2] الحديثة ، ولم تعترف مناهج هذه المدارس بالتاريخ ، وإنما اعترفت به مناهج المدارس التجهيزية ، فكان تلاميذ السنة الثالثة يدرسون النصف الأول من كتاب الجغرافيا ومن كتاب تاريخ

---

(١) Gooche : *History and Historians in the 19 th Ceutury*. P. 12.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .

القدماء تأليف رفاعة أفندى ، وكان تلاميذ السنة الرابعة يدرسون النصف الثانى من هذين الكتابين[١] .

وعمل رفاعة على تدريس التاريخ فى مدرسة التاريخ والجغرافيا التى أنشأها بعد عودته من البعثة ، ولما أنشئت مدرسة الألسن لم يكن التاريخ يدرس بها فى أول سنة ، ولكن لجنة الامتحان اقترحت فى نهاية هذه السنة الأولى تدريس التاريخ بها « وأرسلت إلى أوربا لشراء كتب فرنسية فى الأدب والقصص والتاريخ[٢] .

مهما يكن من أمر فقد كانت هذه خطوة لها أهميتها الكبرى وكان الفضل الأكبر فيها لرفاعة ، ولم يقنع رفاعة بهذا فقد كانت له أهداف أكبر يريد تحقيقها لتدعيم دراسة التاريخ ولتدعيم حركة التأليف التاريخية فى مصر الحديثة .

ولقد كانت جهوده كلها موجهة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لترجمة الكتب التاريخية ، ولتزويد المكتبة العربية بمجموعة من الكتب المعربة تغطى تاريخ العالم بقدر الإمكان ، وقد عمل فى هذا الميدان رائداً يحيط به ويساعده جماعة من نوابغ تلاميذه خريجى مدرسة الألسن .

أما فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (وخاصة فى

---

(١) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٢٩ (نقلا عن وثائق عابدين) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٣ .

عصر إسماعيل) فقد خطا رفاعة الخطوة الثانية الطبيعية ، وبدأ يؤلف فى التاريخ ، وفى تاريخ مصر بالذات .

عاشت مدرسة الألسن نحو الخمسة عشر عاماً بدأت تسيطر فيها على شئون الثقافة العامة فى مصر ، وأنتجت فى إبانها الإنتاج العلمى الوفير ، ويبدو أن رفاعة كان يراعى رغبات الوالى وحاجات الحكومة والمدارس عند اختيار الكتب التى تترجم ، ولكنه كان يتخير الكتب التاريخية تبعاً لخطة رسمها لنفسه ، فإنه يتضح من مراجعة هذه الكتب أنه كان يريد أن يترجم كتباً مختلفة تغطى تاريخ العالم منذ أقدم العصور حتى أحدثها ، وإن كان تاريخ فرنسا قد حظى منه بعناية خاصة ، فقد ترجم فيه أكثر من كتاب ، ولعل هذا راجع لثقافة رفاعة الفرنسية ، أو للعلاقات التى كانت تربط بين مصر وفرنسا منذ نزلت بأراضيها الحملة ، أو لاستعانة محمد على بالفرنسيين فى إصلاحاته إيثاره إيفاد معظم البعثات إليها .

وقد عنى رفاعة بعلم التاريخ هذه العناية ، وعهد إلى تلاميذه بترجمة الكتب الكثيرة فيه لأسباب متعددة ، أولها ميله الخاص وثانيها وأهمها ما كان يحسه من شغف محمد على الشديد بدراسة حوادث الأمم وتراجم عظماء الرجال .

بدأ رفاعة بتنفيذ هذه الخطة ، فاختار كتاباً فى تاريخ الدول والشعوب القديمة من مصريين وسريانيين وبابليين وأكراد

وفرس ويونانيين . . إلخ ، وعهد إلى تلاميذه فى مدرسة الألسن بترجمته ، وسمى هذا الكتاب بعد تعريبه « بداية القدماء وهداية الحكماء » ، ولما كان هذا الكتاب فى أصله الفرنسى « ناقصاً فى تاريخ الخليقة والعرب ، وكان فى كتاب عماد الدين أبى الفدا سلطان حماة ما يفى بالأرب » فقد أضاف رفاعة إليه فصولا من هذا الكتاب « لكمال المطلوب وبلوغ المرغوب » .

والمطلوب والمرغوب — كما رجحنا — هو تغطية تاريخ العالم بسلسلة من الكتب ، ولهذا نراه لا يتقيد بنصوص المؤلفين عند الترجمة ، بل يبيح لنفسه إضافة أجزاء من كتب عربية قديمة ليكمل بها ما فى هذه الكتب من نقص ، وليحقق خطته التى رسمها لنفسه .

وكان هذا الكتاب أول كتاب تاريخى تترجمه مدرسة الألسن ، فقد طبع فى سنة ١٢٥٤ (١٨٣٩م) واشترك فى ترجمته ثلاثة من تلاميذ رفاعة هم : مصطفى الزرابى ومحمد ، عبد الرازق ، وعبد الله أبو السعود .

وبعد الفراغ من ترجمة هذا الكتاب فى تاريخ العالم القديم ، تخير رفاعة كتاباً آخر فى تاريخ العصور الوسطى ، وعهد لمصطفى الزرابى بترجمته ، فخرج كتاباً كبيراً فى جزئين ، وقدم له رفاعة بما يؤكد خطته التى زعمناها ، قال : « . . . يقول الفقير إلى الله تعالى رفاعة رافع ناظر مدرسة الألسن : هذه رسالة فى تاريخ

القرون المتوسطة تكملة لتاريخ القدماء الذى طبعه ولى النعم .. الخ »
وقد سمى هذا الكتاب : « قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون » .

تناول هذان الكتابان تاريخ العصور القديمة والمتوسطة ، وقد انقسم العالم فى العصور الحديثة إلى دول كثيرة مختلفة ، ولكل دولة تاريخها ، وقد عنى رفاعة بتاريخ فرنسا خاصة للأسباب المتقدم ذكرها ، فعهد إلى أحد النابغين من تلاميذه — أبى السعود أفندى — بترجمة كتاب « نظم اللآلىء فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك » ، فترجم وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

وبعد سنوات عهد إلى تلميذ آخر هو حسن قاسم بترجمة كتاب ثان فى تاريخ فرنسا من تأليف المؤرخ الفرنسى « مونيقورس » ، وطبعت الترجمة فى بولاق سنة ١٢٦٤ .

وقد عرف رفاعة أن محمد على يعنى عناية خاصة بدراسة سير أمثاله من الملوك والمصلحين ، والذين نهضوا بأممهم نهضات يذكرها التاريخ ، ولهذا اختار « تاريخ ملك من ملوك الفرنج تعلو همته بينهم على المريخ ، هو تاريخ بطرس الأكبر ، الذى فضله بين ممالك أوربا أشهر من أن يذكر »[1] ، وعهد إلى نابغ آخر من تلاميذه ومواطنيه — وهو أحمد عبيد الطهطاوى — بترجمته

(١) الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر ، ص ٣ .

والكتاب من تأليف الفيلسوف الفرنسى المعروف ڤولتير .

ومن كتب التراجم التى عربها خريجو الألسن كذلك كتاب « مطالع شموس السير فى وقائع كارلوس الثانى عشر » – ملك السويد – ترجمه محمد مصطفى البياع « وكانت ترجمته بأوامر مدير المدارس، لا زال (مختاراً) لإبراز الدرر والنفائس[1] » .

ولما كان الكتاب يؤرخ لمملكة « أسوج » – السويد – حتى عهد كارلوس الثانى عشر ، فقد رأى المترجم أنه من المناسب أن يذيله « بتذييل لطيف يذكر فيه من حكمها بعده من الملوك إلى عهدنا هذا (طبع الكتاب سنة ١٢٥٧) على طريق الإيجاز ، لتعلم أحوال تلك البلاد الشمالية ، وتتم بذلك فائدة الكتاب » .

وقد إنتخب المترجم هذا التذييل من « كتاب المؤلف راغوان فى أحوال القرن الثامن عشر »[2] .

هذه هى الخطة التى رسمها رفاعة لتزويد المكتبة العربية بعدد من الكتب يغطى تاريخ العالم فى عصوره القديمة والمتوسطة والحديثة ، قد عمل على تنفيذها بالإستعانة بنفر من تلاميذه خريجى الألسن .

وقد كان لهذه الخطوة أهمية كبرى فقد أصبح بين أيدى

---

(٢) مطالع شموس السير ، ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

المثقفين المصريين وقراء العربية ولأول مرة مجموعة من الكتب التاريخية تؤرخ للعالم فى عصوره المختلفة تأريخاً علمياً صحيحاً ، وقبل هذا لم يعن المؤرخون المسلمون إلا بالتأريخ للعالم الإسلامى ولم يحاولوا أن يؤرخوا للعوالم أو للشعوب غير الإسلامية [١] تأريخاً خاصاً ، وما ذكروه عن بعض الدول والشعوب التى اتصلت بالعالم الإسلامى كالدولة البيزنطية ، أو الجمهوريات الإيطالية ، أو المسيحيين فى أسبانيا ووسط أوربا ، أو الفرنج المشتركين فى الحروب الصليبية لم يعد أن يكون شذرات أو فقرات أو فصولا قصيرة محدودة غير واضحة المعالم .

وأما ما كتبه المؤرخون المسلمون عن تاريخ العالم فى العصور القديمة فإنه ملىء بالخرافات ، ولكن هذه التواريخ التى ترجمها رفاعة وتلاميذه حملت إلى قراء العربية — للمرة الأولى — معلومات صحيحة وجديدة ، فقد عنيت أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عناية خاصة بالبحوث الأثرية وكشف الأثريون عن كثير من المدن والآثار القديمة وألفت كتب كثيرة فى تاريخ

---

(١) B. Lewis : *Th Arabs in History. London* 1950. P. 164 to 165.

والترجمة العربية لهذا الكتاب : العرب فى التاريخ ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

الدول والحضارات القديمة بعد أن أفاد مؤلفوها كثيراً من الكشوف الأثرية .

ومما لا شك فيه أن هذه الكتب — رغم أنها مترجمة غير مؤلفة — كانت أقوى تأثيراً فى المجتمع المصرى من الكتب التاريخية التى ترجمت من قبل إلى اللغة التركية بأمر محمد على ، فقد ترجمت هذه إلى اللغة العربية وطبع من كل كتاب ألف نسخة ، وكان بعضها يقرأ أو يدرس فى المدارس الحديثة وخاصة مدرسة الألسن ، وأقبل على قراءتها عدد كبير من خريجى هذه المدرسة ؛ والمرجح أنها انتشرت أيضاً فى أوساط المتعلمين فى مصر والبلاد العربية ، والنتيجة الهامة لهذه الحركة فى رأيى أن المثقفين من قراء العربية بدأوا ينظرون إلى التاريخ نظرة إنسانية بعد أن كانوا ينظرون إليه — على ضوء المؤلفات التاريخية القديمة — نظرة محلية محدودة ، وبدأوا يعرفون أن هناك أمماً وشعوباً أخرى لها حضاراتها وثقافتها وتاريخها — وإن اختلفت عنهم فى الدين — .

وكان من الممكن أن تؤتى مدرسة الألسن ثماراً أنضج وأن تؤثر فى الثقافة العربية أثراً أقوى وأوضح لو أنها استمرت فى طريقها ، ولكن عباساً الأول لم يكد يلى عرش مصر (سنة ١٨٤٨) حتى أمر بإغلاق هذه المدرسة ، وأبعد رفاعة إلى السودان ليشرف على مدرسة إبتدائية أنشئت فى الخرطوم ، وشتت

تلاميذه ومعاونيه فى المصالح والإدارات الحكومية المختلفة .

ومات عباس فى ١٨٥٤ ، وخلفه سعيد ، فأعاد رفاعة إلى مصر ، ثم عينه ناظراً للمدرسة الحربية فى القلعة ، ولم ييأس رفاعة ، بل رحب بالمنصب الجديد ، وسعى حتى صبغ المدرسة بصبغة مدنية واضحة ، وأقحم الدراسات التى يتقنها ويميل إليها فى المنهاج إقحاماً ، فجعل دراسة اللغة العربية واجبة على الجميع ، وترك للتلاميذ حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين : الفارسية والتركية ، وإحدى اللغات الأوربية : الإنجليزية والفرنسية والألمانية .

وفى سنة ١٨٦٣ ولى إسماعيل عرش مصر ، وكان إسماعيل يرمى — من يوم أن تولى الحكم — إلى إصلاح القضاء فى مصر ليفلّ من حدة الأجانب ، ولهذا بدأ يعد العدة لهذا الإصلاح بوضع المشروعات لترجمة القوانين الفرنسية ، وإعداد المصريين الذين يصلحون لتولى مناصب القضاء الجديد ؛ ولترجمة القوانين أنشىء قلم الترجمة الجديد فى سنة ١٨٦٣ ، ولإعداد القضاة أنشئت مدرسة الألسن الجديدة فى سنة ١٨٦٨ .

وعيّن رفاعة ناظراً لقلم الترجمة ، فاختار معاونيه فى العمل جماعة من تلاميذه القدامى خريجى مدرسة الألسن القديمة هم : عبد الله السيد ، وصالح مجدى ، ومحمد قدرى ، ومحمد لاظ ، وعبد الله أبو السعود ، وبدأ رفاعة وتلاميذه بترجمة القانون الفرنسى (Code Napléon) .

ولـكن رفاعة لم يكن يعنيه القانون فى كثير أو قليل ، وإنمـا كان يعنيه علم التاريخ ، ولهذا خطا فى عهد إسماعيل الخطوة الثانية الطبيعية ، وترك الترجمة وبدأ يؤلف فى عـلم التاريخ .

ومؤلفات رفاعة فى التاريخ تختلف عن ترجماته ، كما أنها تمثل فى رأيى مرحلة من مراحل تطور الدراسات التاريخية التى عرفتها أوربا ومرت بها فى القرن التاسع عشر ؛ فقد امتاز القرن التاسـع عشر فى أوربا بميزتين هامتين ، إحداهما سياسية والثانية ثقافية ، أما الأولى فهى ظهور الثورات الشعبية وحركات التحرير والوحدة القومية ، وأما الثانيـة فهى حركة العناية بالآثار والحضارات القديمة والـكشوف الأثرية التى ألقت كثيراً من الأضواء الجديدة على التاريخ القديم وعلى الحضارات المصرية والأشورية والبابلية واليونانية والرومانية .

وقد كان لهاتين الميزتين أو الظاهرتين أثرهما الواضح فى حركة التأليف التاريخى فى أوربا فى القرن التاسع عشر ؛ فعنى المؤرخون الأوربيون بنواحى التاريخ القومى ، وبدأ المؤرخون فى كل دولة من دول أوربا يضعون الـكتب فى تاريخ بلدهم وقومهم ، وكان ذلك كله رد فعل للظاهرة الأولى ، كما أنهم بدأوا يفيدون من نتائج الـكشوف الأثرية ويضعون المؤلفات الجديدة فى تاريخ الحضارات القديمة ، وكانت هذه الحركة صدى للظاهرة الثانية .

وكان لهاتين الظاهرتين أثرهما كذلك فى حركة التأليف التاريخى فى مصر فى هذا القرن ، وانعكس هـذا الأثر فى جهود رفاعة وتلاميذه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

حقيقة لم يدرك رفاعة ثورات المصريين على الحملة الفرنسية ، فقد ولد فى سنة ١٨٠١ ، وهى السنة التى جلت فيها الحملة عن مصر ، ولـكنه سمع عنها الـكثير ولا شـك من أستاذه الشيخ حسن العطار ، وقرأ عنها الـكثير فى كتابى الجبرتى : « عجائب الآثار » و « مظهر القديس » ، ثم هو قرأ الـكثير عن الثورة الفرنسية الـكبرى أثناء دراسـته فى باريس ، وترجم فصولا عنها فى الـكتب التى ترجمها هو وتلاميذه فى تاريخ فرنسا ، ثم هو قد قرأ كثيراً من مؤلفات الـكتاب الفرنسيين الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية من أمثال روسو وڤولتير ومونتسكيو ، بل لقد ترجم لمونتسكيو[1] ، واختار كتابين من كتب ڤولتير أحدهما فى تاريخ بطرس الأكبر ، والثانى فى تاريخ الرومان ليترجمهما اثنان من تلاميذه فى الألسن ، ورفاعة أخيراً شهد بنفسه ثورة سـنة ١٨٣٠ فى فرنسا ، وترجم فى رحلته الدستور الفرنسى الذى وضعه لويس الثامن عشر ، وسماه « شرطة » La Charte .

لهـذا كله اتجه رفاعة — عند ما بدأ التأليف فى التاريخ —

---

(١) انظر الشيال : رفاعة الطهطاوى ، ص ٩٠ — ٩٢

اتجاها قومياً ، فوضع لنفسه خطة جديدة ترمى إلى وضع مؤلف ضخم متعدد الأجزاء فى تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة إلى العصر الحديث .

وقد كان للجهود التى بذلها علماء الحملة الفرنسية فى مصر أثر جد واضح فى لفت الأنظار إلى الآثار المصرية القديمة وضرورة دراستها دراسة علمية سليمة ، فقد سجل رسامو الحملة وبوجه خاص البارون « دينون » فى كتاب وصف مصر مجموعة كبيرة من صور هذه الآثار المنبثة فى أنحاء مصر من الإسكندرية إلى أسوان[1] ، وكانت هذه الصور رائعة ودقيقة ، ولهذا فقد لفتت أنظار العلماء والمؤرخين فى أوربا بعد نشر كتاب وصف مصر (١٨٠٩ — ١٨١٣) إلى ضرورة البحث والتنقيب عن هذه الآثار لدراستها دراسة علمية .

كذلك كان لعثور رجال الحملة على حجر رشيد أثر جد خطير ، فقد عكف العلماء بعد ذلك على قراءة ما عليه من نصوص ، إلى أن وفق العالم الفرنسى شامبليون فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، وبهذا أمكن قراءة ما عثر عليه من نصوص على أوراق البردى وعلى المقابر والمعابد والآثار المصرية

---

(١) انظر : عبد المنعم أبو بكر : البحوث الأثرية وأثرها فى كتابة التاريخ القديم (المجلة التاريخية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ص ٣ - ٤٦)

المختلفة ، وكانت هذه النصوص هى المفتاح الذى قاد المؤرخين إلى التعرف على أصول الحضارة المصرية القديمة وأسرارها ، بعد أن ظلت قروناً طويلة وهى سر مغلق لا يعرف كنهه ، ويكفى أن نرجع إلى ما كتبه المؤرخون المصريون فى العصر الإسلامى عن بقايا هذه الآثار لنعرف إلى أى حد كانوا يجهلون بسائط هذا التاريخ ، ويرجع هذا الجهل إلى ضياع أصول اللغة المصرية القديمة وعدم وجود من يستطيع قراءة خطوطها المختلفة ، حتى لقد كان هؤلاء المؤرخون المصريون المسلمون يصفون النقوش التى توجد على الآثار فيقولون إنها مكتوبة « بالقلم المجهول » .

ثم أقبل الباحثون والمنقبون الأوربيون على الحفر وكشفوا عن كثير من الآثار المصرية القدية ، وبدأ المؤرخون والأثريون أمثال ماريت وماسبيرو وبروكش وغيرهم يفيدون من نتائج هذه الكشوف فيكتبون تاريخ مصر القديم كتابة جديدة صحيحة إلى إلى حد كبير ، وكان لهذه الحركة أثرها فى رفاعة ، فهو عندما أراد أن يؤلف كتابه فى تاريخ مصر لم يبدأ بالفتح العربى ، أو بظهور الإسلام ، أو ببدء الخليقة كما كان يفعل سابقوه جميعاً من المؤرخين فى العصر الإسلامى ، بل بدأ بتاريخ مصر القديم وخصص الجزء الأول لتاريخ مصر فى عصور الفراعنة والبطالمة والرومان والبيزنطيين ، ووقف عند الفتح العربى ، وسماه « أنوار توفيق

الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » لأنه قدمه للخديو إسماعيل ، وقد طبع هذا الجزء فى بولاق فى سنة ١٢٨٥ .

وهذا الجزء يعتبر بدءاً لمرحلة جديدة من مراحل فهم التاريخ المصرى . فقد كان المؤرخون المصريون فى العصر الإسلامى إذا عالجوا هذا التاريخ بخسوه حقه وأنقصوا من قدره ، لأنهم كانوا يجهلون حقائقه ، ولا يعرفون عنه إلا خليطاً من الخرافات والأباطيل ، ولأن هـذا العصر فى نظرهم كان يمثل الوثنية القديمة التى كانت تعبد الأصنام من دون الله وتعترف بتعدد الآلهة .

ولـكن رفاعة كان أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ما وصلت إليه الـكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون فى عصره ، وهو أول مؤرخ مصرى آمن بأمجاد هذا التاريخ المصرى الفرعونى القديم ، ولم يلعنه ولم ينقص من قدره ، بل أعلن اعتداده واعتزازه به حين كتب عنه ، فمصر فى رأيه أم الحضارات « ولم تسبقها أمة فى ميدان التمدنية ولا فى حومة تقنين القوانين وتشريع أحكام الأحكام المدنية ، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة ، ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملـكة عظيمة ولا دولة[1] » .

---

(١) أنوار توفيق الجليل ، ص ٥

ورفاعة يختلف فى فهمه للتاريخ المصرى عمن سبقه من المؤرخين المصريين اختلافاً واضحاً ، وذلك لأن معظم هؤلاء المؤرخين كانوا يفهمون هذا التاريخ فهماً مجزءاً ، فيكتبون عن تاريخ كل خليفة أو ملك على حدة ، ويؤرخون لكل سنة على حدة ، لذلك آثروا طريقة الحوليات عند كتابة تواريخهم ، وقليل منهم من استطاع أن ينظر النظرة الشاملة لتاريخ مصر فى جملته ، أو لتاريخ عصر برمته ، أو تاريخ خليفة أو ملك كوحدة قائمة بذاتها ، أما رفاعة فقد فهم التاريخ المصرى فهماً جديداً ، ونظر إليه نظرة شاملة ، وأدرك أنه تاريخ مستمر ، وأن الحضارة المصرية سلسلة متصلة الحلقات على العكس من بعض الحضارات القديمة الأخرى ، « فما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفى ، وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى ، فكأنما نورها شىء ما كان ، ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان ، وأما مصر فأغرب شىء من بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها أنها بقيت سبعين قرناً حافظة لمرتبتها العليا ، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا[1] » .

ثم هو يرى أن مصر لها تاريخ مجيد قديم عريق فى القدم ، يمتد بجذوره إلى الماضى السحيق ، إلى عصر الفراعين وما قبل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩

الفراعين ، وأن مصر كانت منذ هذا العصر البعيد ذات حضارة مزدهرة تشع أنوارها على العالم ، وأن هذه الحضارة بقيت شعلتها مضاءة خلال العصور جميعاً ، سواء أكانت هذه العصور عصور قوة واستقلال أم عصور ضعف وتبعية ، بل لقد فطن رفاعة إلى حقيقة واضحة ، وهى أن مصر عندما كانت تفقد استقلالها المادى كانت تظل حاملة لشعلة الحضارة ، وكانت تبز غيرها من الدول فى ميدان الفكر والعلم ، وكانت الدول الأخرى تفيد من نهضة مصر العلمية ؛ حدث هذا فى العصرين اليونانى والرومانى ، أما فى العصر الإسلامى فقد وقفت مصر تذود عن حماها وعن حمى الشرق الإسلامى ، فانتصرت على جيوش أوربا الصليبية أكثر من مرة ، وأسرت كبيراً من ملوك أوربا هو الملك لويس التاسع وأودعته سجونها إلى أن مُنّت عليه وعفت عنه وأطلقت سراحه .

فطن رفاعة إلى هذا كله وعبر عنه لأول مرة فى كتاب يكتب باللغة العربية ، قال فى المقدمة واصفاً أمجاد الحضارة المصرية ، وشارحاً فكرة استمرارها ، وأثرها فى جميع دول العالم : «فقد كانت (مصر) فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا ، وكانت شوكة سلاحها قوية ، وهيبتها فى القلوب متمكنة علية ، وفى أيام الإسكندر ومن بعده البطالسة ، وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة ، كانت مصر أيضاً رحيبة الدولة مهيبة الصولة ، كما انتقش فى سجايا قلوب الأمم

من فخارها ، وارتسم فى مرايا الملل من رفعة منارها ، فكانت إهابتها بالقوة المعنوية بقدر إهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسية ، أو ليس أن حكماء الاسكندرية وعلماءها وفلاسفتها اشتهروا بالعلوم العقلية لاسيما علم الأخلاق والعوائد ، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم ، وأخذ عنهم الصادر والوارد ، والمتردد والوافد عموم المنافع والفوائد ، فتشعبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد ، فتغيرت أحوال البلاد تغايير حثيثة ، ونشأ عنها صورة حوادث الأزمان الحديثة ، وكذلك فى القرون الوسطى المعلومة التى افتتاحها فتوح الإسلام لمصر فى حالة مفهومة ، تجدد فى مصر ما لا مزيد عليه من التقدمات والأهمية مما لايكاد يوجد فى غيرها من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ؛ إذ كانت قطب رحى ديار الإسلام ومركز دائرة شريعة خير الأنام ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الإفرنج ، وغلبوا الجم الغفير وهزموا الجند الكثير ، وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم بتوطين النفس فى الحرب على الشدة والتصليب ، ولما ظهر ملك فرنسا بجهة دمياط والمنصورة ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة ، وفادى بنفائس الأموال نفسه ، وعاد إلى بلاده . . . ومن سوابق هذه المخالطات الشرقية ، وعلائق التقدمات الأندلسية انتشر التمدن من المشرق إلى المغرب ، وأعظم الفضل لديار مصر فى انتشار

هذا التمدن المرقص المطرب . . »[1] .

هذا الفهم الجديد لتاريخ مصر ، وهذا التعبير الجديد عن هذا الفهم هو مظهر من مظاهر الإفاقة ، وظهور الوعى القومى الجديد ، وهو يختلف اختلافاً بيناً واضحاً عن فهم المؤرخين المصريين السابقين لتاريخ بلادهم .

وإنى أعتقد أن هذا الفهم الصحيح للتاريخ المصرى الذى بدأه رفاعة كان له أثره الواضح فى الأجيال التالية ، فقد استقر فى أذهان القادة والناس ، وظلّت هذه النغمة تتردد على ألسنتهم وتعمل عملها فى إيقاظ أرواحهم أثناء جهادهم المتصل للحصول على الاستقلال فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولست أقول هذا القول افتراضاً ، بل هناك من الأدلة ما يثبته ، فقد طلب عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وهو مختفٍ فى مخبئه مجموعة من الكتب ليقرأها فى وحدته ، كان من بينها كتب رفاعة الطهطاوى ، وقد اتصل مصطفى كامل الزعيم الوطنى فى شبابه الأول بعبد الله النديم ، بعد أن عفا عنه الخديو وعاد إلى مصر ، وتأثر به وتتلمذ عليه ، ونحن لو درسنا الكثير من خطب ومقالات عبد الله النديم ومصطفى كامل وغيرهما ممن أتى بعدهما من الكتاب والزعماء الوطنيين دراسة مقارنة لتأكدت لدينا هذه الحقيقة ولوجدنا

---

(١) أنوار توفيق ، ص ٩ — ١٠

هؤلاء جميعاً يرددون هذا الفهم الجديد للتاريخ المصرى والذى عبر عنه رفاعة — كما قلنا — لأول مرة .

وقد بدأ رفاعة هذا الجزء بمقدمة فى جغرافية مصر ، تكلم فيها عن نهر النيل وفروعه وترعه ، وأهميته بالنسبة لمصر ، وأثره فى تاريخها وشعبها وحضارتها ، وختم هذه المقدمة بالكلام عن أحدث الكشوف الجغرافية التى تمت فى عهده ، فتحدث عن البعوث التى أرسلها محمد على للكشف عن منابع النيل ، وخص بالذكر البعثة التى قادها سليم قبودان ودرنود بك فى سنة ١٨٤١ التى سارت فى النيل الأبيض مسافة ٥٠٠ فرسخ جنوب الخرطوم ، ونقل النتائج التى وصلت إليها البعثة ، وقارن بينها وبين أقوال بطلميوس الجغرافى عن منابع النيل .

وبعد فراغه من هذه المقدمة تكلم عن تاريخ مصر فى عصور الفراعنة والبطالمة والرومان ثم فى العصر البيزنطى ، وقد ميز هذا العصر لانتشار المسيحية فيه ، ولهذا يسمى الدولة فى هذا العصر « دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية » .

وختم هذا الجزء بالفتح العربى لمصر ، ولهذا فقد جعل الفصل الأخير من كتابه خاصاً بالكلام عن العرب قبل الإسلام وعاداتهم ولغتهم وأسواقهم وآدابهم . . . الخ .

ورفاعة قد انتهج فى هذا الكتاب منهجاً علمياً ، فهو ينقل عن المراجع القديمة والحديثة ، العربية وغير العربية ، يقول رفاعة

عن المادة التى أتى بها فى كتابه : « واقتطفتها من الكتب العديدة ، ولستخرجتها من التواريخ القديمة والجديدة ، عربية كانت أو غير عربية » .

وهو لا ينقل عن هذه المراجع دون فهم ، بل هو يخضع كل قول للفحص والنقد ، ويقارن ما ينقله عن المراجع الأوربية — وخاصة المعلومات الجديدة عن تاريخ مصر القديم — بأقوال العرب أو اليونان القدامى ، فإذا اتفقت المراجع على شىء أخذ به ، وإذا اختلفت أخذ بالجديد الذى تؤيده الكشوف الأثرية والكتب التاريخية الحديثة ، وكان حريصاً الحرص كله أن يستبعد دائماً كل ما شاب التاريخ المصرى القديم من شوائب الأباطيل والخرافات ، مما تمتلئ به كتابات المؤرخين القدماء ، وقد شرح رفاعة منهجه هذا فى مقدمته ، فقال إنه تجنب « الأقوال غير الموضوعية مما يظهر بعرضه على ميزان العقل أنه من محض الخرافات ، أو مما تولع به الأخباريون والقصاص من اختراع الأباطيل والخزعبلات ، أو مما توهمه أرباب الأوهام الفاسدة من العجائب التخيلية التى بدون فائدة ، إذ كثير من كتب السير مشحون بخوارق العادات . . . فلهذا اكتفيت بذكر جوامع الكلم فى هذا التاريخ النافع وبيان ما اشتمل عليه فيما يخص أزمان مصر ، مما يتعلق بالمدنية والعسكرية من الوقائع ، مع الإعراب عن صيغ المبانى والعوامل ، ورفع أعلام الفتوحات إلى فواعلها ، ونصب معالم الهياكل

والإفصاح عما سلف من إبداع الفنون والصنائع ، واختراع وسائل عموم المنافع ووسايط المصانع ، مع ما يضاف إلى ذلك من ملاحظات اقتضاها الحال ، أو من إيقاظات تربط ما تأخر بما سبق وارتضاها المقال ، حيث أوجبها الكلام لدفع المنافاة بين العبارات السابقة واللاحقة ، أو للجمع بين الأقوال المختلفة لتصحيح التوفيق بينها والمصادقة ، فجاد هذا التاريخ بالنسبة لما سواه بشفاء الغليل ، لما احتوى عليه من اقتران المدلول بالدليل »[1] .

وهو ينص كثيراً على المؤرخين الذين ينقل عنهم ، ويغفل ذكرهم أحياناً فيقول : « قال المؤرخون » أو « قال بعض المؤرخين » ، ومن المؤرخين القدامى الذين ينقل عنهم : « هيرودوت » و « مانيتون » ، ولكنه لا يأخذ أقوالهم قضية مسلمة ، بل يخضعها للنقد ، ويقارن بينها وبين النتائج التى وصلت إليها الكشوف الأثرية الحديثة ، فهو يقول مثلا فى ص ١٢٥ : « وأكثر مؤرخى اليونان المشهورين كانو أحياء فى وقت هذه الواقعة فحكوها على ما ينبغى ، إلا أنهم وإن اتفقوا فى الوقائع فقد اختلفوا فى الأزمان والتواريخ ، وأصح حكايتهم فى هذا المعنى كلام مانطون ، حيث يشهد له ما وجد فى المبانى المصرية مما يوافقه . . إلخ .

---

(١) المقدمة ، ص ٩

ويقول عند كلامه عن يختنصر الثانى :

« وقد ذكرنا سبب مجيئه فى مصر وحقيقته ، وبينا أنه هو الصحيح ، وقد نقل مؤرخو اليونان فى شأن ذلك أقاويل مطروقة للعامة مما يخترعه الحكويون من النوادر التى لايليق بمنصب المؤرخ ذكرها واعتمادها . . »

ومن المراجع العربية التى أشار إليها : فتوح مصر لابن عبد الحكم ، ومروج الذهب للمسعودى ، والخطط للمقريزى ، والشفا للقاضى عياض ، وصحيح الإمام مسلم ، والأوائل للسيوطى . . الخ

ومعظم مادة هذا الكتاب مأخوذة عن المصادر الفرنسية ، وقد أشار رفاعة إلى « قاموس مشاهير الرجال الفرنساوى[1] » ، وإلى ماريت باشا[2] .

وقد كان لكتاب « أنوار توفيق الجليل » قيمته ومكانته فى الوقت الذى ألف فيه وبعده بقليل ، ولكنه الآن لم تعد له قيمة علمية ، فقد تغير كثير من الحقائق الواردة فيه بعد الكشوف الأثرية الضخمة وبعد ظهور عشرات بل مئات المؤلفات التى كتبت فى القرن العشرين عن تاريخ مصر القديم بعصوره المختلفة ،

---

(١) ص ٩٠

(٢) ص ١٠٧

وبقيت للكتاب بعد ذلك هذه الدلالة التى أشرنا إليها على تطور حركة التأليف التاريخى فى مصر على يد رفاعة رافع الطهطاوى فى القرن التاسع عشر .

وقد رأى رفاعة قبل أن يؤرخ لمصر فى العصر الإسلامى أن يقف وقفة طويلة فيؤرخ للرسول عليه السلام ، ويكتب سيرة له جديدة يلتزم فى كتابتها المنهج العلمى المعترف به لكتابة التاريخ فى عصره ، وقد كتبت فى سيرة الرسول كتب كثيرة ، كانت آخرها السيرة التى كتبها المؤرخ المصرى الكبير تقى الدين المقريزى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تحت عنوان « إمتاع الأسماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع » .

ثم سكتت أقلام المؤرخين المصريين منذ ذلك الوقت إلى أن كتب رفاعة هذه السيرة الجديدة ، ولم يحاول أحد من المصريين بعد رفاعة أن يكتب سيرة جديدة للرسول إلى أن كتب الدكتور محمد حسين هيكل « حياة محمد » حوالى سنة ١٩٣٥ .

وجعل رفاعة هذه السيرة الجزء الثانى فى كتابه الذى كان يزمع وضعه فى تاريخ مصر ، وسماها « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » ، وقد بدأ بنشره على حلقات فى مجلة روضة المدارس فى سنتها الثالثة ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يتم طبعه فى مجلد مستقل ، وقد أشرف على إتمام هذا الطبع ابنه على فهمى

رفاعة ، وتم طبع الكتاب فى مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٩١ (١٨٧٤ م) .

وقد تتبع رفاعة فى هذا الكتاب حياة الرسول منذ مولده إلى وفاته ، فروى قصة حياته طفلا ويافعاً ورجلا وكهلا ، وتكلم عن البعثة وعن عهد الدعوة فى مكة ، ثم عن الهجرة وعهد تكوين الدولة فى المدينة ، وعن الغزوات ، ثم أفرد فصلا للحديث عن زوجات النبى ، وفصلا عن معجزاته وهكذا .

والجديد فى هذا الكتاب هو الفصل الأخير الذى أفرده رفاعة للتحدث عن نظام الحكومة فى عصر النبى ، فجمع الأقوال المختلفة المبعثرة فى كتب السيرة الأخرى ونظمها نظماً جديداً ، وكتب منها بحثه الجديد هذا ليدل على أن أسس الحكومة الإسلامية بفروعها المختلفة قد وضعت فى زمن النبى ، فتكلم عن الوزارة والحجابة والكتابة ، وعن إمارة الحج وكسوة الكعبة واستطرد فتكلم عن المحمل ، ثم تكلم عن نظم السفارات وعن الصلح والأمان ، وعن الجيش والعطاء والديوان ، وعن القضاء والشهود وكتابة الشروط والعقود ، وعن المواريث والحسبة والشرطة والجاسوسية والسجون ، وعن الجهاد وإمارة الحرب وصاحب اللواء وتقسيم الجيش إلى خمسة أقسام ، والسلاح وأنواعه على عهد الرسول ، وعن كل مايتصل بالحرب من إعداد للسفر

وتمهيد للطرق وحراستها ، وعن مواد المحاصرات كالمجانيق والدبابات والخنادق ، وعن صاحب المغانم والبشير الذى يرسل للبشارة بالفتح ، وعن السفن التى استعملت فى زمن الرسول .

ثم ينتقل إلى النظام المالى فيتحدث عن الجزية والخراج ، وصاحب المساحة والعامل على الزكاة ، وعن الأوقاف ، وعن صاحب المواريث والمستوفى والمشرف ، وعن صاحب بيت المال وخازن الطعام ، ثم يتكلم عن الأوزان والأكيال الشرعية المستعملة فى عهد الرسول ، وعن ضرب السكة .

ثم ينتقل إلى النواحى الاجتماعية فيتحدث عن المارستان والطب والرقية والفصد والكى ، ثم عن الحرف والصناعات التى كانت فى عهد رسول الله ، وعن التجارة وتوابعها .. الخ .. الخ

وهذا فصل له قيمة كبرى ولا يزال يحتفظ بقيمته حتى الآن بين الدراسات التى كتبت فى سيرة الرسول أو نظم الحكم الإسلامية بوجه عام ، ومن الواجب أن يلتفت إليه دارسو التاريخ الإسلامى ويفيدوا منه ، ولست أعرف أحداً كتب فى هذا الموضوع بعد رفاعة غير الكاتب المغربى عبد الحى الكتانى فى كتابه « الترتيبات الإدارية فى عهد الرسول » .

وقد اعتمد رفاعة عند وضع هذا الكتاب على عدد كبير من كتب السيرة والتاريخ الإسلامى ، مما يدل على أنه كان واسع

الاطلاع وعلى معرفة وثيقة بالمكتبة التاريخية الإسلامية ، وهو لا ينقل عن هذه الكتب نقلا حرفياً كما كان يفعل سابقوه من المؤرخين ، بل يحسن الاختيار ، ويحسن عرض النصوص بعد أن يخضعها للنقد والفحص والمقارنة .

وعند هذا الجزء وقف قلم رفاعة فلم يكمل للأسف الشديد الأجزاء الباقية التى كان يزمع أن يؤرخ فيها لمصر فى العصر الإسلامى ، وإن كان تلميذه صالح مجدى قد ذكر فى ترجمته له أنه كتب قسما من تاريخ مصر فى العصر الإسلامى وصل فيه إلى خلافة المطيع ، ولكننا لانعرف شيئاً عن هذا القسم أو مصيره .

ولرفاعة غير هذين الكتابين فصول تاريخية لها قيمتها نجدها متناثرة فى بعض كتبه الأخرى ، وخاصة فى رحلته إلى باريس وفى : « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين فى تهذيب البنات والبنين » .

معاصرو رفاعـــة

وقد عاصر رفاعة فى عصر محمد على عددٌ من شيوخ الأزهر الذين تتلمذوا على الشيخ حسن العطار وتأثروا به وأقبلوا على دراسات فيها شىء من التجديد ، من أمثال الشيخ إبراهيم الدسوق ، والشيخ محمد عياد الطنطاوى ، والشيخ محمد عمر التونسى وغيرهم . ولم تتح لهؤلاء فرصة السفر إلى أوربا كما أتيحت لرفاعة ، ولـكنهم ساهموا فى — معظمهم — فى خدمة حركة الترجمة على وجه آخر ، فشاركوا المترجمين فى مراجعة الترجمات وتصحيحها وتحريرها ، وقد أدوا للثقافة العربية خدمات كبيرة ، فقد كانوا ينبشون فى المراجع العربية اللغوية والعلمية القديمة للبحث عن المصطلحات العلمية العربية التى تقابل المصطلحات العلمية الأوربية .

وقد اتصل الشيخ إبراهيم الدسوق بالمستشرق الإنجليزى المستر لين عند مجيئه إلى مصر وعاونه معاونة فعالة فى ترجمة القاموس المحيط إلى اللغة الإنجليزية .

واتصل الشيخ محمد عياد الطنطاوى بكثير من المستشرقين الذين كانوا يفدون إلى مصر فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وقد كان الشيخ الطنطاوى[1] من أوائل الشيوخ الذين

---

(١) الشيال : الدكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة اسكندرية ، العدد الثانى ، ١٩٤٤

حاولوا تدريس الأدب فى الأزهر فى أوائل عصر محمد على ، ثم سافر إلى روسيا حوالى سنة ١٨٤٠ ، وكان أول أستاذ مصرى أزهرى يعين لتدريس اللغة العربية فى جامعة بطرسبرج ، وظل مقيما هناك هو وزوجه وابنه إلى أن توفى سنة ١٨٦١ ، ودفن فى مقابر المسلمين بمدينة لينجراد ، وقد ألف أثناء مقامه فى روسيا عدداً من الكتب والرسائل معظمها فى النحو واللغة والقراءة ، وبعض منها يتصل بالتاريخ نخص بالذكر منها :

— مسودات فى تاريخ العرب .

— تاريخ روسيا وسماه « تحفة الأذكيا فى أخبار بلاد روسيا » .

— رسالة عن الأعياد المصرية .

— قطعة من تاريخ حياته .

— أحسن النخب فى معرفة لسان العرب .

وهذه الكتب جميعاً مخطوطة لم يطبع منها إلا الكتاب الأخير ، فقد طبع فى ليبسك سنة ١٨٤٨ ، وقد ضمنه الطنطاوى بعض أخباره ، ونقل فيه بعض الرسائل التى تبودلت بينه وبين بعض أصدقائه فى مصر — وخاصة رفاعة الطهطاوى — بعد سفره إلى روسيا .

وأكثر هؤلاء المعاصرين اتصالاً بموضوعنا وبالدراسات التاريخية هو الشيخ محمد عمر التونسى ، وتاريخه عجيب : فهو تونسى

أصلاً ومولداً وإن كانت أمه مصرية ، وقد تلقى علومه فى الأزهر ثم سافر إلى السودان للبحث عن أبيه ، فالتقى به فى دارفور وأقام معه زمناً ، وتنقل فى أنحاء السودان ، وعاد إلى مصر فعين أول الأمر واعظاً فى الآلاى الثامن من المشاة ، وسافر معه إلى بلاد المورة ، وبعد عودته عين مصححاً للكتب الطبية التى تترجم فى مدرسة الطب المصرية ، واتصل هناك بصفة خاصة بالدكتور برون Dr. Perron مدير المدرسة ولازمه ، وقامت بين الرجلين صداقة متينة ، والدكتور برون هو الذى حرضه على تسجيل مشاهداته فى السودان ، فكتب كتابيه القيمين :

١ — رحلة دارفور المسماة « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » ، وقد ترجمها إلى اللغة الفرنسية الدكتور برون ونشر النص العربى فى باريس سنة ١٨٥٠ ، ونشرت الترجمة الفرنسية فى سنة ١٨٥٥ .

٢ — رحلة وادّاى ، وقد كتبها أيضاً تنفيذاً لرغبة الدكتور برُّون ، ولم ينشر النص العربى لهذه الرحلة حتى اليوم ، بل ولا يعلم مصيره ، فقد كان فى حوزة دكتور برون ، وإنما نشرت الترجمة الفرنسية التى قام بها برون أيضاً فى باريس سنة ١٨٥١ .

وهذان الكتابان يتضمنان — إلى جانب سيرة المؤلف نفسه الشيخ التونسى — الكثير من المعلومات التاريخية القيمة عن

بلاد السودان فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولا يزالان يعتبران حتى اليوم من المراجع الهامة عن تاريخ السودان فى العصر الحديث .

تلاميـــذ رفاعة

ذكرنا من قبل أن رفاعة استعان بنفر من تلاميذه فى مدرسة الألسن لتحقيق الخطة التى وضعها لتزويد المكتبة العربية بعدد من الكتب المترجمة لتغطية تاريخ العالم فى عصوره المختلفة ، ولم يعرف تلاميذ الألسن وخريجوها فى أول الأمر التخصص فى ترجمة علم بعينه ، وإنما كان يفرغ أحدهم من ترجمة كتاب فى التاريخ ، فيعهد إليه بترجمة آخر فى الطب ، ثم ثالث فى الكيمياء أو فى الجغرافيا ، وهكذا .

ولكننا نلاحظ أن ميول الخريجين الخاصة ، ووظائف الترجمة التى تولوها بعد تخرجهم قد وجهت كلا منهم إلى نوع من التخصص فى الترجمة أو التأليف فى علم من العلوم ، فاتجه محمود خليفة ، وأبو السعود ، ومصطفى الزرابى ، ومحمد مصطفى البياع إلى ترجمة الكتب التاريخية ، واتجه صالح مجدى ، وأحمد عبيد الطهطاوى إلى ترجمة الكتب الهندسية والحربية ، ومحمد الشيمى ، والسيد عمارة ، وحسين على الديك إلى ترجمة الكتب الرياضية ،

وعبد الله السيد ، ومحمد قدرى إلى ترجمة الكتب القانونية والتأليف فيها . . . وهكذا .

وقد أشرنا من قبل إلى بعض الكتب التاريخية الهامة التى ترجمها تلاميذ رفاعة فى مدرسة الألسن ، ونستطيع أن نضيف إليها هنا كتابين آخرين ترجمهما « خليفة محمود » ، وهما : « إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » و « إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان » ، والكتاب الأول مقدمة للثانى ، وهما من تأليف المؤرخ الإنجليزى روبرتسون Robertson [1] ، وإن كان خليفة محمود قد ترجمهما عن ترجمة فرنسية .

وقد عنى بالدراسات التاريخية خاصة اثنان من تلاميذ رفاعة فى مدرسة الألسن هما : عبد الله أبو السعود ، وصالح مجدى ، وقد كانا أكثر الخريجين اتصالاً بأستاذهم رفاعة فى عهد محمد على ثم فى عهد إسماعيل ، وكانا أكثر الخريجين إنتاجاً وترجمة ، بل وتأليفاً فيما بعد .

---

(١) انظر : الشيال : رفاعة الطهطاوى ص ٩٧ ، وتاريخ الترجمة ، قائمة الكتب المترجمة (فى آخر الكتاب) .

عبد الله أبو السعود :

أما أبو السعود فقد ولد فى دهشور فى سنة ١٢٣٦ (١٨٢٠)، وكان والده قاضياً ، ثم اختير ناظراً لأحد المكاتب التى أنشأها محمد على ، وهو مكتب البدرشين ، وذلك فى سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢)، فألحق ابنه تلميذاً بهذا المكتب ، ومنه اختاره رفاعة بك فى سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤) ليكون تلميذاً بمدرسة الألسن ، وفيها تفوق على أقرانه وخاصة فى اللغة العربية ، فاختير فى سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) مدرساً لهذه اللغة خلفاً لأستاذه الشيخ حسنين الغمراوى ، ومنح رتبة الملازم الثانى .

وبعد قليل رقى إلى رتبة الملازم الأول ، ونقل إلى مدرسة المهندسخانة فكان يدرس بها اللغة الفرنسية ، ويشترك فى تصحيح الكتب الرياضية التى يترجمها مدرسوها ، ولم يكتف فى هذه السنوات بالثقافة التى تلقاها فى مدرسة الألسن ، بل كان يحضر دروس الفقه فى الجامع الأزهر ، وفى سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣ م) عند ما أعيد تنظيم قلم الترجمة الملحق بالألسن نقل إليه أبو السعود ، ولم يترجم فى هذه الفترة إلا كتاب « نظم اللآلى فى السلوك فيمن حكم فرنسا ، ومن قابلهم على مصر من الملوك » والثلثان الأولان من الكتاب مترجمان عن الفرنسية وموضوعهما تاريخ ملوك فرنسا من الدولة « الميروفنجية » إلى عهد الملك

« لوى فيليب » ، أما الثلث الأخير فمن وضعه ، وقد ضمنه تاريخ حكام مصر وولاتها منذ عهد الخليفة أبى بكر الصديق إلى عهد السلطان عبد الحميد ، وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

وفى عهد عباس الأول انزوى أبو السعود موظفاً عادياً لا جهد له ولا نشاط ، ولا عجب فهو تلميذ رفاعة ، فأصابه حينذاك ما أصاب أستاذه من عنت ، فلما تولى سعيد باشا الحكم عاد أبو السعود إلى الحياة العامة ، وسافر مع الوالى إلى السودان كاتباً لمعيته ، وبعد عودته عين بقلم الترجمة بالخارجية ، وفى أوائل عهد إسماعيل عاد إلى قلم الترجمة الملحق بديوان المدارس ليعمل من جديد بالاشتراك مع زميله صالح مجدى تحت رئاسة أستاذها القديم رفاعة بك .

وفى هذا العهد أيضاً خطا أبو السعود خطوة جريئة فأنشأ فى مصر أول صحيفة وطنية شعبية ، وهى جريدة « وادى النيل » ، وقد كان لهذه الصحيفة شأن كبير فى التمهيد للحركة الوطنية فى عهد إسماعيل .

وقد أسهم أبو السعود فى تحرير أول مجلة مصرية ظهرت فى ذلك الوقت، وهى « روضة المدارس » ، ثم اختير فى أخريات أيامه ناظراً لقلم الترجمة خلفاً لأستاذه رفاعة ، ثم كان مدرساً للتاريخ

بمدرسة دار العلوم ، وعضواً بمجلس الاستئناف إلى أن توفى فى الثامن من صفر سنة ١٢٩٥ (يناير ١٨٧٨) .

وقد أسهم أبو السعود كذلك فى حركة نشر الكتب التاريخية القديمة فأشرف على طبع « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » لأبى شامة لأول مرة . (طبع فى مطبعة وادى النيل ، القاهرة ، ١٢٨٧ — ١٢٨٨ = ١٨٧٠ — ١٨٧١) .

صالح مجدى :

أما السيد صالح مجدى فقد ولد فى قرية أبى رجوان من أعمال مديرية الجيزة فى سنة ١٢٤٢ أو سنة ١٢٤٣ (١٧٢٦ — ١٨٢٧) ، وتلقى علومه الأولى فى مكتب حاوان ، ومنه اختير — كما اختير زميله أبو السعود — ليكون تلميذاً بمدرسة الألسن ، فألحق بها فى سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م) .

وفى عهد تلمذته بهذه المدرسة ظهر نبوغه فى اللغتين العربية والفرنسية ، فلما أنشئ قلم الترجمة فى سنة ١٢٥٨ ، وجعل من أقسامه قسم لترجمة الكتب الرياضية تحت رئاسة بيومى أفندى ، جعل صالح مجدى وكيلا لهذا القسم ، وفيه ترجم كتابين من كتب الهندسة .

وفى سنة ١٢٦٠ نقل إلى مدرسة المهندسخانة ، خلفاً لزميله

أبى السعود الذى نقل من المهندسخانة إلى قلم الترجمة فى سنة ١٢٥٩ ، وفى هذه المدرسة عين مجدى « لتدريس اللغتين الفرنساوية والعربية ، وتعليم نجباء تلامذتها فن الترجمة ، وتعريب فروع الرياضيات التى تدرس بها على القواعد العربية ، يقول على مبارك فى خططه : « إنى قد كنت من رجال هذه المدرسة ، فعرفت المترجم فيها ، واتخذته لى صاحباً وصديقاً ، وكنت قد تعينت فى سنة ستين التى التحق هو فيها بتلك المدرسة ، للسفر مع عدة من أمثالى إلى مملكة الفرنسيس لتكميل العلوم الرياضية ، وتحصيل الفنون العسكرية المتعلقة بالطوبجية والاستحكامات ، فلما رجعت إلى مصر بعد خمس سنين وجدته قد وسل إلى رتبة يوزباشى ، وأخبرنى أنه أحرزها فى سنة ١٢٦٢ ، وأنه عرب فى هذه المدة عدة كتب فى فروع الرياضيات . . . ولما أحيلت على عهدتى نظارة المهندسخانة وما معها سنة ست وستين . . كان لى المترجم رفيقاً مع قيامه بوظائفه ، وطالما استعنت بقلمه على تأليف كتب متنوعة فى فنون شتى ، وقد ترجم فى تلك المدة عدة كتب فى الرياضة . . الخ » .

وهكذا كان صالح مجدى[1] أسعد حظاً من صديقه

---

(١) انظر ترجمته فى مقدمة ديوانه ، وفى (جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٨٤ – ١٨٥) .

السيد صالح مجدى

أبى السعود ، فقد مهدت له معرفته بعلى مبارك السبيل إلى البقاء فى مدرسة المهندسخانة فى عهد عباس ، وفى هذه المدرسة قضى نحو عشر سنوات أنتج فيها هذا الإنتاج الضخم .

وفى عهد سعيد عاد أستاذه رفاعة من السودان ، فلم يلبث أن جذبه إليه ، فنقل ناظراً لقلم الترجمة الملحق بالمدرسة الحربية بالقلعة التى كان يتولى نظارتها رفاعة .

وفى أوائل عهد إسماعيل أعيد إنشاء قلم الترجمة الملحق بديوان المدارس ، وتولى الإشراف عليه رئيسه القديم رفاعة بك ، وكان من مترجميه أبو السعود وصالح مجدى ، بل لقد أتى على هذا القلم وقت لم يكن به من المترجمين غير صاحبينا وزميل ثالث لهما كان له شأن أى شأن فى ترجمة الكتب التاريخية فى عصر محمد على ، وهو حسن الجبيلى .

وقد شارك مجدى فى تلك الفترة كأستاذه رفاعة وزميله أبى السعود فى التحرير فى روضة المدارس ، ثم فى ترجمة « قانون نابليون Code Napoleon » .

وظل يتقلب فى الوظائف حتى عين فى سنة ١٢٩٣ (١٨٧٥) قاضياً بمحكمة مصر ولبث يشغل هذا المنصب حتى توفى فى ذى الحجة سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) .

وفى كل تلك العهود كان على مبارك يستعين به وبجهوده وعلمه فى تأليف وتصنيف معظم كتبه ، وقد أشار على مبارك فى خططه إلى بعض هـذه الـكتب[1] ، ويعنينا منها هنا كتاب ذكر على مبارك أنه وضعه فى تاريخ مصر ، وأن صالح مجدى عاونه فى تأليفه ، قال : « وباشر معى بعض التاريخ الذى عملته للديار المصرية فى عدة مجلدات ، وبعض رسائل جمعتها ، وطبعت بمعرفته فى جرنال روضة المدارس » .

ولسنا نعرف عن هـذا التاريخ شيئاً غير هذا النص وغير نص آخر ذكره محمد مجدى فى ترجمته لوالده التى نشرها فى مقدمة ديوانه ، فقد قال إنهما — أى على مبارك ووالده صالح مجدى — أتما من هذا الـكتاب : «ما يتعلق بالفراعنة والأكاسرة والبطالسة والرومانيين ، ووصلا فيه فى مدة الإسلام إلى سـنة ستين ومائة بعد الألف من الهجرة ، وبلغ ما جمع فيه من المجلدات نحو أربعمائة كراسة ، وهو الآن لدى سعادة على مبارك باشا ، والغالب أنه مهيأ للطبع . . »

وقد ظن البعض أن المقصود بهذا الـكتاب هو كتاب الخطط التوفيقية ، غير أن الخطط تم طبعها فى سنة ١٣٠٤ — سنة ١٣٠٦ (١٨٨٦ — ١٨٨٩) ، وديوان صالح مجدى الذى

---

(١) الشيال : رفاعة ، ص ١١٢

ورد فيه هذا النص طبع فى سنة ١٩١١ ، أى بعد إتمام طبع الخطط باثنى عشر عاما ؛ فالكتاب التاريخى الذى كان مهيأ للطبع فى سنة ١٩١١ هو غير الخطط قطعاً ، وخاصة أن موضوعه هو تاريخ مصر فى مختلف العصور لا طبوغرافيتها ، ويضاف إلى هذا أيضاً أن النص الأول ذكره على مبارك عند ترجمته لصالح مجدى فى الخطط ، فلو أنه كان يعنى بالتاريخ الخطط لنص على هذا ، غير أنى رجعت إلى قائمة الكتب المطبوعة التى ألفها على مبارك أو صالح مجدى ، فلم أجد من بينها كتاباً فى تاريخ مصر ، فلعله لم يطبع .

* * *

أبو السعود وصالح مجدى علمان كما قلنا من أعلام خريجى الألسن ، وهما خير نموذجين لهؤلاء الخريجين ، وعلى مثالهما بذل إخوانهما الجهد فى الترجمة والتأليف ، ومن طبقتهما محمد عثمان جلال فى الأدب ، وقدرى باشا فى ميدان القانون .

وقد ربطت الحوادث بين هذين العلمين وبين أستاذهما رفاعة ، فعملا معه فى قلم الترجمة فى عصرى محمد على وإسماعيل ، واشتركا معه فى تحرير روضة المدارس ، وفى ترجمة قانون نابليون ، غير أنهما رغم هذا اختلفا الواحد عن الآخر فى ميادين أخرى ، فقد كان صالح مجدى أقرب إلى على مبارك فى دراساته وثقافته

الرياضية والعسكرية ، ولهـذا تعاون فى إنتاجه العلمى مع على مبارك أكثر من تعاونه مع أستاذه رفاعة ، ومع هـذا فقد كان فضل رفاعة عليه كبيراً ، فإن ثقافته الفرنسية والعربية التى تلقاها فى مدرسة الألسن هى التى رشحته للعمل فى قلم الترجمة فى عهدى محمد على وإسماعيل ، وهى التى رشحته للعمل فى مدرسة المهندسخانة فى عهدى محمد على وعباس ، وثقافته القانونية فى الألسن هى التى رشحته للعمل فى ترجمة القوانين ، ثم لتولى وظيفة القضاء فى عصر إسماعيل ، لهذا كان مجدى أبر التلاميذ بأستاذه ، فهو الوحيد من بين تلاميذ رفاعة الذى أرخ له بعد وفاته ، فكتب عنه كتابه القيم — رغم صغره — « حلية الزمن بذكر مناقب خادم الوطن » ، وهذا هو الكتاب التاريخى الثانى الذى ألفه صالح مجدى ، وتوجد منه نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية[1] ، رقم ١٠٢٦ .

أما أبو السعود فكان أكثر تأثراً بأستاذه ، فقد تخرج من الألسن شغفاً كأستاذه بعلمى التاريخ والجغرافيا ، ولهذا كانت معظم مترجماته ومؤلفاته فى هذين العلمين ، وقد أشرنا فيما سبق إلى جهوده فى ترجمة وتأليف ونشر الكتب التاريخية .

---

(١) قمت أخيرا بنشر هذا الكتاب وتحقيقه ، وطبع فى مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٨ بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للآداب والفنون بذكرى رفاعة